رتبة الميلاد النفسية
مفهوم مركزي في العلاج النفسي الفردي

د/ خياط خالد
جامعة بسكرة

الملخص :

يعد الاصطلاح الأدلري "رتبة الميلاد النفسية" من المفاهيم المركزية التي يبحث عنها المعالج النفسي الأدلري خلال عملية العلاج، سواء كان فرديا أو جمعيا أو زوجيا أو أسريا. لاحظ أدلر وجود تكرارات لخصائص معينة لدى أفراد أسر مختلفة، تشيع لدى الأطفال ذوي رتبة الميلاد نفسها. وقد وضح أدلر أن مفهوم رتبة الميلاد النفسية لا يتمثل في ترتيب الولادة الزمني، بل بالوضعية التي يجد الطفل نفسه فيها ضمن تشكيلة الأسرة. وقد حدد لكل وضعية ميلاد مجموعة من الخصائص المحتملة . غير أنها ليست صفات حتمية، بل وجودها خاضع للعديد من المتغيرات الإضافية التي قد تنقل الطفل من رتبة ميلاد متوقعة إلى رتبة ميلاد نفسية غير متطابقة مع ترتيبه التسلسلي في تشكيلة الأسرة.

Abstract :

The Adlerian term " psychological Birth order " is a central concept adlerian therapist are looking for in the treatment process , whether an individual, a group or a family therapy . Adler observed the occurrence of certain characteristics among children of different families , common among children with birth rank . Adler had clarified that the concept of psychological Birth order is not synonim of chronological rank of birth , but the position where the child finds himself in the family constelation . Adler has identified for each birth position a set of probable characteristics. However, it is not a matter of determinism. Adlerians believe that the presence of these characteristics deponds on a number of additional variables that may change the child from his birth rank to an unexpected psychological birth order.

تمهيد

تشكيلة الأسرة اصطلاح يستخدم لوصف إدراك الطفل لمحيطه المركزي أي الأسرة، ومن ثم التأثيرات المركزية والأهم على نمو شخصية الطفل. ينبغي النظر إلى تشكيلة الأسرة شموليا، إنها تتضمن كافة جوانب الأسرة التي يمكن أن تؤثر في نظرة الطفل إلى ذاته والعالم؛ وبالتالي الكيفيات التي يشعر أو يدرك بها الطفل ما ينبغي عليه أن يكونه أو ما ينبغي فعله لتحقيق الانتماء، واتخاد مكان في العالم، والشعور بالقيمة.

يعرف دريكورس تشكيلة الأسرة بأنها " مخطط اجتماعي لجماعة المنزل خلال أطوار نشأة الشخص. استقصاؤها يكشف عن حقل الخبرات الباكرة، الظروف التي طور تحت وطأتها أساليبه وميوله، ومفاهيمه وقناعاته حول ذاته والغير، واتجاهاته الأساسية، ومقارباته الشخصية للحياة، والتي تشكل قاعدة طبعه، شخصيته" (1).

أجزاء تشكيلة الأسرة التي ينظر إليها الأدلريون غالبا ما يجمعونها (أو يستخرجونها) من تعاليق أو سلوكات كافة أفراد الأسرة في جلسة إرشاد أسري، أو من راشد يتذكر كيف كان يرى ويحس ويفهم مختلف جوانب الأسرة حينما كان صغيرا. في جوهرها، تهمنا المعلومة التي تخص تشكيلة الأسرة إن كانت ذات علاقة مع المواقف والقيم وسلوك وشخصية كل فرد، وكذلك الأزواج المركزية مثل الأبوين، وكذلك الحال بالنسبة لتكتلات الإخوة (عادة الإخوة المتقاربين في العمر). وننظر إلى اتجاهات وقيم وسلوكات وشخصية كل ولي، مع التشديد على الاتجاهات نحو أدوار الجنسين والاتجاهات والقيم المشددة، وأي هاته الأمور يشترك فيها الوليان أو يتصارعان حولها.

تجمع نفس البيانات حول كل طفل عندما نقارن البيانات فيما بين التكتلات الأخوية وكل ولي. من هذه البيانات ترتسم صورة عامة عن مزاج ومناخ الأسرة وعن التحالفات والقيم المتحكمة والقيم الخاصة والتوترات السلوكية. تختتم هذه الصورة العامة بنظرة بانورامية حول الموضع الذي يرى الطفل أن عليه أن يحتله . ويلح الأدلريون على أن الطفل ينطلق من هذه الصورة ليحدد كيف يكون وكيف يفعل حتى يتحصل على مكانة وقيمة في الأسرة، ويتم هذا التحديد بالانتقاء من الخيارات التي يراها أو يتخيلها.

يبدو أن هناك موضوعين يتكرران في الغالب كقاعدة لتحقيق هذه المكانة :

– أن يكون الشخص حسنا (أم لا).

– أن يكون ناجحا وينجز (أم لا) (2).

لاشك أن هتان القضيتان هما الرئيسيتان في التقاليد الأسرية الإسلامية (واليهودية والمسيحية والمجوسية). إنها القاعدة البسيطة للأخلاق عبر العصور المختلفة. انسجاما مع هذه النظرة، تشدد الأسر –إذن– على الطيبة والنجاح، مع تحديدات فارقية دقيقة مقبولة ضمن خصوصيات وضعيتها بالنسبة لكل طفل. وتنطوي مهمات إحراز مكان وإحساس بالقيمة على قبول أو رفض أو إيجاد بدائل ذات صلة بهذه المواضيع كما هي واردة في الأسرة. من ثم تدور النضالات والصراعات داخل التكتلات الأخوية – في كثير الأحيان– حول :

– تثمين الطيبة أو السوء (أي كونه طيبا أو سيئا بصفته صبيا أو صبية).

– تثمين النجاح أو الإخفاق، ووسائل كونه كذلك (مثل إحراز الانتباه أو الإعجاب أو السيطرة أو حجز المكان الأول).

1– رتبة الميلاد النفسية :

في العملية العلاجية ، غالبا ما يسأل أدلر متعالجيه عن تشكيلة أسرهم، من ذلك رتبة ميلادهم وجنس إخوتهم وفارق السن بينهم (3). كشف ألفرد أدلر ووصف أهمية رتبة الميلاد لأول مرة سنة 1918. يقول أدلر : "من الأخطاء الشائعة الاعتقاد بأن أطفال الأسرة الواحدة يعيشون في نفس المحيط. بالطبع هناك الكثير من الأمور هي نفسها لدى الجميع، غير أن الموقف النفسي بالنسبة لكل طفل هو فريد، وهو يختلف عن المواقف التي يعيشها الإخوة الآخرون. مرد ذلك يرجع إلى ترتيبهم التسلسلي الولادي".

عرف كامبل ومعاونوه رتبة الميلاد النفسية على أنها: "الخصائص السلوكية والشخصية التي أشار إليها الأدلريون بأنها مشتركة بين كل وضعية ترتيب ميلادي". ويعتبرها مناستر متعلقة بالعملية أكثر من تعلقها بالمضمون ، ويعرفها بأنها " الإحساس الذي يشعره الطفل تجاه كونه البكر أو الأوسط أو الأصغر أو الوحيد بكل ما يعنيه ذلك للطفل (4).

إن الوضعية النفسية للشخص ذات أهمية قصوى، حسب مناستر و كورسيني. كل شخص له مكانة يدركها داخل أسرته. هذه الوضعية المدركة يمكن أن تكون أو لا تكون نفس المكانة الترتيبية الزمانية ضمن الولادات الأسرية. هذه الوضعية المدركة هي رتبة الميلاد النفسية للفرد. وقد أشار أدلر إلى سوء فهم تعرضت له أطروحته حول التصنيف وفق الوضعية في الأسرة (5). ويمكننا إزالة هذا اللبس من خلال التمييز بين رتبة الولادة الزمنية و رتبة أو وضعية الميلاد النفسية. إن رتبة الولادة الزمنية هي ترتيب الطفل ضمن تسلسل الولادات في الأسرة، كما هي مسجلة في دفتر الولادات؛ أما رتبة الميلاد أو الوضعية النفسية للطفل فهي الطريقة التي يتموضع بها كل طفل أو يدرك بها نفسه في البنية الأسرية (6).

لا يبدي الأفراد ذوي نفس رتبة الميلاد بالضرورة سمات أو أنماط مشتركة. يقول أدلر :"ليس رقم الطفل في الترتيب التسلسلي للولادات هو الذي يؤثر في طبعه، بل الوضعية التي يزداد تحت وطأتها، والطريقة التي يؤول بها هذه الوضعية". فإن كان الطفل البكر ضعيف الشخصية أو ممسوخا فإن الطفل الثاني قد يتخذ منهاج عيش مماثل للأطفال الأبكار. وفي الأسر الكبيرة، إن ازداد طفلان بعد فاصل زمني طويل عن الإخوة السابقين، فإنهما سوف يترعرعان منفصلين عن بقية الإخوة. أكبرهما يمكن أن ينمو كطفل بكر. هذا يحدث أحيانا في حالات التوائم (7).

2- خصائص الأطفال حسب رتبة الميلاد النفسية :

آخذا بعين الاعتبار إدراك الشخص للوضعية التي ولد فيها، صاغ أدلر (1928) بعض الفرضيات العامة حول رتبة الميلاد. هذه الأوصاف تدعمت بالأدبيات عبر الزمن، حسب دريكورس و سولتز، و بيبر، و سويني. كما نبه أدلر (1928) وكافة الباحثين المذكورين إلى أن الأطفال يتخذون –باكرا– قرارات تتعلق بمكانتهم ضمن الأسرة، يؤسسونها وفق إدراكاتهم الإبداعية الفردية. وبالتالي، العمل الأهم هو فهم رتبة الميلاد النفسية للشخص. كذلك، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار متغيرات مثل الجنس والفاصل الزمني بين الولادات والجو الأسري (8). وبناء على ذلك يشدد أدلر على حقيقة أن منهاج عيش الطفل ذي رتبة ولادة معينة قد يظهر لدى طفل آخر ذي رتبة ميلاد مختلفة إن كانت وضعيته ضمن الأسرة مشابهة .

سنعرض فيما يلي أهم الخصائص النفسية المشتركة التي لاحظها أدلر على كل رتبة ووضعية ميلاد نفسية. ورغم أن الحديث الأدلري يبدو كأنه يخص رتبة الولادة الزمنية إلا أنه في الحقيقة يتحدث عن رتبة ووضعية الميلاد النفسية.

2-1- وضعية الطفل الأول (البكر):

يحتل الابن البكر مكانة فريدة و يعيش موقفا فريدا، فهو قد كان الطفل الوحيد لمدة معينة في بداية حياته. ونظرا لكونه مركز الاهتمام الوحيد فهو عموما يحظى بالدلال. في هذه الوضعية نجده يشبه الطفل الأوحد، ولا يمكن تفادي التدليل في كلتا الحالتين غالب الأحيان. ويعاني الطفل البكر عادة من التغير الكبير في وضعيته حيث يسحب من تحته البساط حينما يزداد المولود الثاني، وقد يعيش خبرة صادمة عندما يزداد الأخ الجديد. هذا الحدث المأساوي يغير وضعية الطفل ونظرته للدنيا. عموما، لا يتم تحضير الطفل لهذا التغير، فيشعر بأنه فقد موضعه كمركز للمحبة والانتباه. ويقوده هذا إلى توتر شديد لأنه ابتعد عن هدفه. ومن هنا يباشر سعيه نحو استرجاع أفضليته.

إذا كان سن الابن البكر ثلاث سنوات أو أكثر حين يزداد الأخ الموالي، فإنه سوف يدمج هذا الاستياء ضمن منهاج عيشه المعد مسبقا. إن كان تبنى منهاج عيش تكافلي فإنه لا شك سوف يتبع نفس النهج تجاه الأخ الجديد. يستخدم هذا الطفل كافة الوسائل التي جلبت له الإعجاب المستحسن. طبعا، سيفضل استخدام أحسن الطرق ليحرز المحبة تقديرا لطيبته؛ لكن السلوك الحسن لا يثير الانتباه عندما يكون الجميع منشغلا بالوافد الجديد. وبذلك، يميل الطفل إلى تغيير أساليبه ويستحضر النشاطات القديمة التي جلبت له الاهتمام سالفا، حتى ولو كان اهتماما غير سار. إن كان الطفل ذكيا فسيتصرف بذكاء، لكن ليس بالضرورة في انسجام مع مطالب الأسرة. إن كان البكر قد تبنى منهاج عيش متمركز حول الذات فسوف يميل إلى الشعور بالكراهية والاستياء تجاه الأخ الجديد. وقد يستخدم الخصومة والعصيان والاعتداءات على الصغير أو حتى محاولة التصاغر حتى يدفع الأولياء إلى معاودة الانتباه إلى وجوده (كيانه).

أما إن كان البكر أقل من ثلاث سنوات حين ولادة الأخ الثاني، فإن كراهيته واستياءه سيكونان في غالبيتهما لاواعيين، وهو ما يجعل هذه الاتجاهات أكبر مقاومة للتعديل في الحياة المستقبلية (9).

إن كان البكر مدللا، فإنه كالطفل المدلل يشترط تسليط الأضواء عليه حتى لو كلفه ذلك التعبير عن العجز أو العودة إلى مرحلة الرضاعة. وهكذا، تحت تأثير ماضيه، يبلغ هدفه في الحاضر باستخدام وسائل عقيمة. قد يبدي عجزا عن القيام بأعمال بمفرده أو احتياجا إلى المساعدة في الأكل والإخراج، ويطلب النظر المتواصل إليه، ويستجلب التدخلات الإنقاذية بتعريض نفسه للمخاطر وترعيب الأولياء.

إن تظاهرات هذه الطبائع (مثل الغيرة أو الحسد أو الأنانية) ذات صلة واضحة بالظروف الخارجية. يمكن أن يرتمي الطفل في حضن الأمراض أو يمدد فترتها، كأمراض المعدة مثلا. ووفقا للاستعدادات الجسمية، يمكن أن يقود التوتر لدى بعض الأنماط إلى الصداع والصداع النصفي واضطرابات المعدة والآلام الصغيرة والرقاص الهستيري. أما الأعراض الخفيفة فتظهر في شكل مظهر المتعب، وفي تغير عام في السلوك نحو الأسوأ، يؤثر بهما الطفل على أولياءه.

2-1-1- وضعية الخلع :

كلما زاد الفاصل الزمني بين ميلاد البكر وميلاد الأخ الثاني كلما كانت الطرق التي يغير بها الطفل البكر سلوكه أذكى وأيسر على الفهم. إن حدث سحب البساط مبكرا جدا فإن جهود الطفل البكر في أغلبها تأخذ طبعا غريزيا. أسلوبه في السعي سيكون مشروطا بردود فعل الناس في محيطه وتقييمه لها. على سبيل المثال، إن توصل هذا الطفل إلى أن الكفاح لا يأتي بنتيجة فقد يفقد الأمل ويكتئب، ويستحرز النجاح من خلال تحيير الوالدين عليه وترهيبهم. إن وجد أن مثل هذه الأساليب ناجحة بالنسبة إليه فإنه سوف يستحضر الوسائل السيئة الأكثر قدرة على إبلاغه غايته.

آثار الخلع : إن خلع الطفل البكر من قبل طفل تال قد يدفعه إلى الابتعاد عن الأم في اتجاه الأب، ويكوّن لديه موقفا انتقاديا تجاه الأم قد يستمر إلى الأبد. هذا النوع من الأشخاص قد يخشى دوما أن يزاح إلى الخلف طيلة حياته. ونلاحظ أنه في علاقاته العاطفية كلها قد يميل

إلى التقدم خطوة والتراجع خطوة حتى لا يحدث أي حسم نهائي للأمر، وسيشعر دوما بأنه محق في مخاوفه لأن المواقف السعيدة لا تدوم.

أمام كل مسائل الحياة يتخذ الطفل المخلوع موقفا مترددا مرفوقا ببعض المشكلات السلوكية والميول العصابية. سيشعر بأن مشكلته السلوكية وأعراضه مصدر نجدة وأمان له. سيتقرب من المجتمع – مثلا – بموقف باغض. قد يغير مهنته باستمرار. في حياته الجنسية قد يواجه إخفاقا في الآداء، وقد يبدي ميولا زيرية. إن وقع في حب شخص فإنه سرعان ما سيقع في حب شخص آخر. ونظرا لكونه مرتابا وغير عازم على اتخاذ قرار فإنه سيصبح مماطلا كبيرا.

2-1-2- وضعية التنصيب

يمكن أن يحافظ الطفل البكر على حظوته لدى الأولياء بحيث تكون حميميته معهما غير قابلة للاستبدال. قد يرجع الفضل إلى حسن طبيعي ولادي أو نمو حسن لديه، أو قصور في الطفل الثاني كبشاعة في المظهر أو إعاقة عضوية أو سوء طباع. في مثل هذه الحالة، الطفل الثاني هو من سيصبح المشكلة أما البكر فيرجح أن ينمو نموا جد رغد.

2-2- وضعية الطفل الثاني :

إن الطفل الثاني في وضعية مغايرة جدا، هو لم يعش أبدا خبرة أن يكون وحيدا. ورغم أنه يفضل في البداية إلا أنه لا يكون أبدا مركز الاهتمام الأوحد. لذلك يباشر الطفل الثاني (مثل حالة أدلر نفسه) الحياة في ظرف أحسن لنمو التكافل و النزعة الاجتماعية.

منذ البداية، الحياة بالنسبة إليه هي – بدرجة أكبر أو أصغر– عبارة عن سباق؛ الطفل البكر يحدد الوتيرة والطفل الثاني يحاول تجاوزه. ما ينتج عن هذه المنافسة بين الطفلين يخضع لمقدار شجاعتهما وثقتهما بنفسيهما. الطفل الثاني النموذجي ينمو وينضج في اتجاه تنافسية معتدلة، ورغبة سليمة في التغلب على الخصم البكر.

لو فقد البكر شجاعته فسيقع في وضعية حرجة، خاصة إذا كان الأصغر قويا حقا وتفوق عليه. وإن فقد الطفل الثاني الأمل في تحقيق التساوي فسيحاول أن يحقق البريق أكثر من أن يكون أحسن، أي إذا كان البكر أقوى منه بكثير فإن الأصغر سيميل إلى اللجوء إلى

الجانب غير المفيد من الحياة. هذا يتجلى في العديد من حالات مشكلات السلوك لدى الأطفال أين يشق الكسل أو الكذب أو السرقة طريقه نحو العصاب والإجرام وتدمير الذات.

كقاعدة، مهما كان الحال، فإن الطفل الثاني في وضعية أحسن من الطفل الأول. حسب أدلر، إلى حد ما– تتشكل شخصيات الأطفال الثواني بناء على إدراكهم لموقف الطفل البكر تجاههم. الطفل البكر أرنب السباق يحفزه على بذل الجهد. إن كان موقف الطفل البكر يتسم بالكراهية المطلقة والانتقام فقد نجد الطفل الثاني يصبح جد متنافس وخوارا جدا. ومن الشائع لدى الطفل الأول تعجيل خلع نفسه عن طريق المصارعة ضد الخلع بغيرة وحسد وعدائية، وهذا ما يحط من أفضليته لدى الأولياء. في المقابل، الطفل الثاني يكون في أسوأ وضعية عندما يكون الطفل الأول لامعا.

مهما يكن الحال، نظرا لشعوره بأن الحياة عبارة عن سباق فإن الطفل الثاني عادة ما يجعل نفسه أكثر تصنعا، وإن تبقت لديه الشجاعة فإنه يسير في طريق التغلب على الطفل الأول في عقر داره. وإن قلت شجاعته بعض الشيء فإنه سيختار تجاوز الأكبر في مجال آخر. إن نجح الثاني في سباقه هذا فسيميل إلى تنمية اتجاهات ثورية تشعره أن كل سلطة قابلة للتحدي. أما إن قلت أكثر فسيصبح انتقاديا وعدائيا أكبر من العادة، وبطريقة شخصية غير موضوعية. يظهر هذا الموقف في الطفولة مرتبطا بتفاهات : سيفضل النافذة مغلقة إذا فتحها الأكبر، ويطفئ النور إذا أشعله الآخر، ويبقى دوما معارضا ومناقضا (10).

إن قيام الأطفال بإعادة السلوك النفساني لإخوانهم وأخواتهم الكبار وأوليائهم يعزى من قبل بعض الباحثين إلى غريزة التقليد أو إلى التقمص. غير أن هذه الإعادة تفسر أحسن لو رأينا بأن الطفل يقلد فقط تلك السلوكات التي يجد فيها سبيلا ناجحا لتحقيق المساواة التي حرم منها في جوانب أخرى. كما أن التشابه النفساني مع تصرفات الأسلاف أو حتى البدائيين لا يعني أن أنماط الردود النفسية وراثية، بل يعني أن العديد من الأفراد يستخدمون نفس وسائل الهجوم والدفاع في المواقف المشابهة.

في حياته اللاحقة، نادرا ما يتمكن الطفل الثاني من تحمل القيادة الصارمة من قبل الآخرين أو تقبل فكرة "القوانين الأزلية". سيميل أكثر إلى الاعتقاد – صوابا أو خطأ – بأنه لا توجد قوة في هذا العالم لا يمكن هزمها. وجد أدلر حالات يستخدم فيها الطفل الثاني أغرب الوسائل لتقويض السلطة الحاكمة أو التقاليد. على سبيل المثال، بواسطة المدح

المبالغ يمكن للفرد أن يعظم ويمجد شخصا معينا أو مذهبا إلى درجة لا يستوعبه فيها الواقع. كلتا الطريقتين مستخدمة في حكاية مارك أنطوني في "يوليوس قيصر". وقد بين أدلر كيف استخدم دوستويفسكي هذه الوسيلة بدهاء لتقويض دعائم روسيا القديمة. من يتذكر تقديمه للأب زوسيما في "الإخوة كارامازوف" ويتذكر أيضا حقيقة كونه الطفل الثاني فلن يجد صعوبة في الإقرار بأطروحته حول تأثير وضعية رتبة الميلاد النفسية.

2-3- وضعية الطفل الأصغر :

الطفل الأصغر أيضا نمط متميز، يكشف عن بعض خصائص منهاج عيش نادرا ما فشل الأدلريون في التعرف عليه. لقد كان دوما رضيع العائلة ولا يعيش أبدا مأساة الخلع من قبل طفل أصغر، هذا الخلع الذي يعد قدرا لكل الأطفال الآخرين. تبعا لذلك فإن وضعيته حسنة، وأن الحالة الاقتصادية للعائلة عادة ما تتحسن في أعوامها المتأخرة. يتصادف مع ذلك انضمام الأبناء الأكابر إلى أوليائهم في تدليل الطفل الأصغر، الذي يكون بذلك مغمورا جدا بالدلال. وقد لاحظ أدلر وآمن أن الأطفال الأصاغر هم غالبا الأكثر تدليلا. ومن جهة أخرى، يمكن أن يكون الأصغر محفزا جدا من قبل الأكابر.

في حالة التساهل المفرط والتدليل سيسعى الطفل الأصغر في حياته إلى أن يكون مسنودا من قبل الآخرين، وسيميل لاحتضان مشاعر قوية بالقصور ونقص في الإحساس بالاستقلالية. أما في حالة ما إذا تحفز بالأكابر فإن الطفل الأصغر سيشبه على الأرجح الطفل الثاني ممتلكا عدة أفضليات. غالبا ما نجد لديه دافعية أكبر لتجاوز الإخوة الأكبر، سيباشر التنافس ساعيا إلى تجاوز كل أولئك الذين يحددون له الوتيرة. وسنجد من الأصاغر من سيصبحون أسرع العداءين، وأحسن الموسيقيين، والرياضيين الأكثر قدرة، والطلبة الأكثر طموحا.

في العديد من الحالات يفشل في هذا الأمر، لذلك غالبا ما يبحث الطفل الأصغر عن حقل آخر للنشاط بعيدا عن حقل أعضاء الأسرة الآخرين، وفي هذه الحالة أعتقد أنه يعطي مؤشرا على جبن مخفي. على سبيل المثال، إن كانت الأسرة تاجرة نجده يتوجه نحو الفنون أو الآداب، وإن كانت علمية نجده يختار البيع (11).

لقد لاحظ أدلر في مواضع أخرى أن العديد من الرجال الناجحين في عصرنا كانوا الأطفال الأصاغر، وهو مقتنع أن الأمر ينطبق على أي عصر من العصور. في القصص الدينية نجد عددا مميزا من الأطفال الأصاغر ذوي الطباع القيادية مثل داوود (عليه السلام) و يوسف (عليه السلام). فحياة سيدنا يوسف عليه السلام نموذج جيد عن ذلك، وهي تصور لنا العديد من الرؤى المطروحة فيما سبق. أخوه الأصغر بنيامين كان يصغره بفاصل زمني كبير جدا، لذلك لم يلعب دورا أساسيا في نمو سيدنا يوسف عليه السلام. وبالتالي رتبة الميلاد النفسية لسيدنا يوسف عليه السلام كانت طفلا أصغرا.

في حكايات جميع العصور والشعوب يلعب الطفل الأصغر دور الغازي. ويعزى ذلك إلى كون الظروف وفهم الناس لها بسيطين مما سهل عليهم تجميع الخبرات وفهم المجرى المتناسق لحياة الطفل الأصغر. هذا الفهم التقليدي للطبع يعيش في التراث الشعبي عندما نسيت الخبرات الحالية .

2-4- وضعية الطفل الأوحد :

باعتبار الطفل الوحيد للأسرة يحتل مركز المحيط دون جهد، ولكونه يدلل عموما، فإنه يشكل منهاج عيش ينادي فيه بأن يكون مسنودا من قبل الآخرين وأن يكون مسيرا لهم في نفس الوقت. الأطفال الأواحد يعيشون في وضعية تنافسية فريدة، لكن ليس مع الإخوة والأخوات بل مع الأب والأم. وكونهم يعيشون في عالم راشد كله غالبا ما يجعلهم يطورون شعورا مبالغا بالسيادة ومفهوم ذات مضخم.

في جل الأحيان يترعرع الطفل الأوحد في محيط حميمي. قد يكون الوالدان خوافان ويخشيان إنجاب المزيد من الأولاد. أحيانا تكون الأم عصابية قبل هذا الحدث وتشعر بأنها ليست أهلا لرعاية المزيد من الأبناء. إن تحديد النسل قد يمتص الكثير من انتباه العائلة. وفي هذه الحالة يمكننا الإشارة إلى توتر الوالدين واتحادهما لرعاية حياتهما بقلق. لذلك فالعناية المخصصة للطفل الأوحد لا تتوقف ليل نهار، وغالبا ما تخلق انطباعا لدى الطفل بقناعة فحواها أنه إن لم يكن تحت النظر والحماية فهو في خطر محدق، لذلك غالبا ما ينمو هؤلاء الأطفال حذرين. عاجلا أو آجلا يصبحون ناجحين على الأرجح ويحظون بالتقدير والاهتمام الذين يرغبون فيهما. لكن إن واجهوا ظروفا مغايرة كليا وصعبة عليهم فقد يبدون قصورا صارخا.

غالبا ما يكون الطفل الأوحد حلوا وحنونا، وقد ينمي في حياته اللاحقة سلوكيات إغرائية لاستمالة الآخرين، لأنه درب نفسه على هذا الأمر في حياته الباكرة والمتأخرة. عادة ما يكون أكثر تعلقا بالولي الأكثر عناية به –وهو الأم عموما– وفي بعض الحالات ينمي توجها كارها تجاه الولي الآخر.

إن التنشئة السليمة للطفل الأوحد ليست سهلة، لكن يمكن للوالدين فهم المشكلة وحلها بصواب. يقول أدلر (1931) أن الأطفال الأواحد قد يفتقرون إلى مشاعر التكافل والنزوع الاجتماعي، ويبدون تصرفات طفيلية، ويرجون من الناس تدليلهم وحمايتهم. غير أنه لا يرى وضعية الطفل الأوحد خطيرة، بل يجد لها عواقب وخيمة في حال غياب المناهج التربوية الحسنة. هذه النتائج السيئة كان يمكن تفاديها لو توفر إخوة وأخوات في الأسرة (12).

2-5- الذكر الأوحد بين الإناث :

في المحيط المشكل من أغلبية أنثوية والذي يسيطر فيه التأثير الأنثوي، يميل الذكر الأوحد إلى اتخاذ هدف سمو ومنهاج عيش في وجهة الأنوثة. هذا يحدث بدرجات متفاوتة وطرق شتى ويتجلى في خدمة النساء بتفاني وطاعتهن، أو في تقليدهن، أو في الميل إلى الجنسية المثلية، أو في الاستبداد بهن.

يتفادى الناس – عادة – تربية الذكور في محيط جد أنثوي. يبدو أن هؤلاء الأطفال ينمون في اتجاه أحد القطبين : إما الغرور المفرط أو الجرأة. وفي قصة "أخيل" العديد من النقاط التي يمكن الافتراض من خلالها أن القدماء فهموا جيدا مثل هذه الحالات.

2-6- الأنثى الوحيدة بين الذكور :

نجد نفس الاحتمالات المتناقضة في حالات الفتيات الوحيدات الناشئات بين ذكور أو في محيط ذكوري كليا. في مثل هذه الظروف يمكن – بالطبع – أن تكون مدللة مع انتباه وعاطفة جامحتين؛ غير أنها – على العكس– يمكن أن تتبنى موقفا ذكوريا وتتمنى أن لا تبدو كفتاة. على كل حال، ما يحدث في هذا الصدد يخضع أساسا لكيفية تقييم المحيط للرجال والنساء. في كل محيط هناك دوما توجه سائد في الأذهان حول هذه المسألة، وهو

متناغم مع القيمة النسبية للرجال والنساء في هذا التوجه الذي مفاده أن الطفل سيرغب في آداء دور الرجل أو المرأة.

بعض الرؤى الأخرى حول الدنيا التي تسود في الأسرة يمكن أن تؤثر في نمط سلوك الطفل، أو تقوده إلى صعوباته. على سبيل المثال، خرافة كون الطبع موروثا، والإيمان بالطرق المتعصبة في التربية. إن أي طريقة مبالغة في التربية تميل إلى إصابة الطفل. هذه حقيقة غالبا ما نصادفها لدى أطفال المعلمين والنفسانيين والأطباء ورجال القانون عموما (شرطة وقضاة وضباط) ورجال الدين. مثل هذه المبالغات التربوية تتكشف غالبا في تواريخ حياة الأطفال الصعاب والجانحين والعصابيين (13).

3- مقابلة فحص رتبة الميلاد النفسية :

لم يصف أدلر خصائص الأطفال من خلال رتبة ميلادهم بطريقة حاسمة، بل تحدث عن عموميات وتكرارات نسبية واحتمالات. أما العملية الحاسمة فهي أن "الطفل يقلد فقط تلك الأنماط السلوكية التي يجد أنها طريق ناجح لتأكيد المساواة التي يرى أنه حرم منها على أصعدة أخرى". إن الخصوصيات والخصائص التي ينميها الطفل تتجلى غالبا من خلال تشكيلة الأسرة ومن خلال قيم واتجاهات وسلوكات وشخصيات الأبوين والإخوة. هذه الأواخر تعبر – بدرجة بالغة – عن قيم واتجاهات ومعايير ثقافة الأسرة والمجتمع والحقبة التاريخية. يرى مناستر أن العوامل التاريخية والاجتماعية والثقافية الهامة كان لها أثر كبير على الخصائص المتشابهة الناتجة التي لاحظها أدلر على الأفراد في كل وضعية من وضعيات ترتيب الميلاد (14). وقد أشارت الانتقادات الموجهة للدراسات المتعلقة برتبة الميلاد في الغالب إلى حاجتها إلى إدراج متغيرات الجنس والإخوة وحجم الأسرة وكثافتها وفواصل الولادات ورتبة الميلاد النفسية (15).

على كل حال، يتشكل لدى الطفل إحساس تجاه جماعة الإخوة التي هو جزء منها، وإحساس بوضعيته بالنسبة إليهم. وبسبب بعض الجوانب الأخرى في تشكيلة الأسرة، مثل الفوارق العمرية والجنس، فإن طفلا أوسطا قد يشعر كأنه البكر في تكتل أخوي أو الأصغر

فيه، أو الوحيد بين تكتلين آخرين. مساعي وقرارات الطفل سوف ترتبط بمشاعره حول الخيارات المتوفرة في هذه الوضعية.

إن الفحص الذي يأخذ بعين الاعتبار هذا المفهوم لرتبة الميلاد النفسية سوف يعزز فهم سيرورة نمو منهاج عيش المفحوص وفق تأثيرات رتبة الميلاد. أولا، يعمل الفاحص على تحديد المركبات والسلوكات والشخصيات الوالدية والأدوار الجنسية والمناخ الأسري والمزاجات. ثانيا، يعمل على تحديد هذه الخصائص لدى المفحوص، ولدى الإخوة.

أحد المؤثرات الأخرى على وجهات نظر أفراد الأسرة هو الأتراب. حينما كان الطفل طفلا، وحينما كان كلا الوالدين والدين وطفلين. إن الزمان والمكان الذين يترعرع فيهما الناس يؤثران على قيمهم واتجاهاتهم وسلوكاتهم. إن الثقافة والأتراب يؤثران على قيم وسلوكات الأسرة، ويجب على الفاحص الإحاطة بهما قصد فهم أدق للتشكيلة الأسرية. إن تأثيرات الثقافة والأتراب تستلزم حقا أن التغيرات عبر الحقبة التاريخية قد تغير من طبيعة كل من الأسر ووضعيات رتبة الميلاد . من بين التغيرات الملحوظة نجد التغيرات الأسرية في حد ذاتها (16).

فيما يلي سنستعرض أهم البيانات والأسئلة التي يسعى الفاحص والمعالج والمرشد الأدلريين طرحها لتحديد رتبة ووضعية الميلاد النفسية، ومعرفة دورها وتأثيرها في خط سير حياة المفحوص، منهاج عيشه. المرشد الموضح أدناه هو مرشد جد مفصل حاول الإحاطة بكل الأسئلة التي يمكن أن يطرحها الفاحص الأدلري في سعيه لتحديد رتبة الميلاد النفسية للمفحوص واستكشاف تأثيراتها. لكن يمكن للفاحص المتمرس الاكتفاء بأقل قدر من الأسئلة لإنجاز المهمة المرجة.

يستهل الفاحص أولا بعملية تقنية، يقدم فيها استمارة للمفحوص تتضمن بيانات مدنية أساسية حول أعضاء الأسرة، يرافقها مدخل نفسي يبدو بسيطا. ثم يفتتح حوارا مع المفحوص يدور حول خمس محاور :

- وصف الذات بالنسبة للإخوة.
- وصف العلاقات والتحالفات بين الإخوة.
- وصف علاقات الإخوة مع الوالدين.

– وصف العلاقة بين الوالدين.
– وصف الأشخاص الإضافيين في الأسرة.

خلاصة

في الحقيقة، الخصائص التي اقترحها أدلر حسب رتبة الميلاد هي عموميات. لذلك لا ينبغي الاكتفاء بالبحث عن العمومية البشرية للديناميات في مختلف أنماط الأسر بل كذلك يجب البحث عن خصوصياتها. إن هذه الفروق موجودة لكن قوتها ودلالتها لا تزال خاضعة للطمس رغم مرور قرن من الزمن على نشر أدلر لأفكاره الرائدة في هذا المجال . قد يكون مفيدا جدا تقصي خصائص رتبة الميلاد في الأسر التقليدية والأسر النووية لأجل الوصول إلى نتائج مطابقة للواقع الحالي الذي نعيشه .

على كل حال، يرى الأدلريون أن جزءا كبيرا من نمو الشخصية يتم من خلال الإخوة، من خلال تشكيلة الأسرة. هذا التأكيد يحتاج إلى دفع الجهود البحثية واعتماد تصاميم بحثية تأخذ بعين الاعتبار جوانب أخرى من الأسرة وتستقصي توزيعها وآثارها على جماعات الإخوة .

الهوامش :

(1)- Mosak, Harold, H. (1997). Lifestyle Assessment. In : Carlson,J & Slavik,S . Techniques in Adlerian Psychology. Taylor & Francis Pub. WA. USA. p40.
(2)- Manaster,G,J (2006). Family Constellation: Meaning, Research and Future Research. In: Slavik,S & Carlson,J. Readings in the Theory of Individual Psychology. Routledge. New York. 2006. pp299-301
(3)- Feist ,F & Feist,G.J. (1998). Theories of Personality. McGraw-Hill. Boston. USA. 6th Ed. 2006. p85
(4)- Manaster,G,J (2006). Opcit. pp302-303
(5)- Adler.A (1937). Position in Family Constellation Influences Life-Style. In : Carlson,J & Slavik,S . Readings in the Theory of Individual Psychology. Routledge. NY. 2006. p307
(6)- Campbell,L et al (1991) The Relationship of Psychological Birth Order to Actual Birth Order. In: Slavik,S & Carlson,J. Readings in the Theory of Individual Psychology. Routledge. New York. 2006. p325
(7)- Adler.A (1937/2006). Opcit. p307
(8)- Campbell,L et al (1991). Opcit. pp325-326
(9)- Adler,A (1937/ 2006). pp307-314 / Feist & Feist. 2006. p85
(10)- Adler,A (1937/2006). pp308-313 / Feist & Feist. 2006. pp85-86
(11)- Adler,A (1937/2006).p314 / Feist & Feist.2006.p86
(12)- Adler,A (1937/2006). pp314-321 / Feist & Feist. 2006. p86
(13)- Adler,A. (1937/2006). pp321-322
(14)- Manaster,G,J (2006). Opcit. p300
(15)- Campbell,L et al (1991). Opcit. p326
(16)- Manaster,G,J (2006). Opcit. pp303-305